مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767 | المجلد 10 / العـدد: 01 (2024)، ص 598- 613

علم الكلام من تنوع أسمائه وتعريفاته إلى ضرورة التجديد

The science of speech from the diversity of its names and definitions to the necessity of renewal

عبد الحليم بن حجبة*

[1] جامعة. حسيبة بن بوعلي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. الشلف، a.benhadjba@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2023/07/17 تاريخ القبول: 2024/05/26 تاريخ النشر: 2024/06/01

ملخص:

تهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن التنوع الذي عرفه علم الكلام على مستوى أسمائه أولاً، وعلى مستوى تعريفاته ثانياً، لتبين من خلال ذلك: مدى ثراء هذا العلم ابتداء من أصالة مصدره، وتنوع أسمائه، ومدى تميز علم الكلام عن الفلسفة والعديد من العلوم الإسلامية الأخرى، فضلا عن مرونة هذا العلم ومقدرته على التطور مما يستدعي التجديد في موضوعه ومناهجه.

لنصل في الختام إلى التوصية بضرورة استثمار الجهود التراثية في علم الكلام، وما يحتويه من ذخائر معرفية وأساليب دفاعية، لبناء علوم كلامية جديدة تساعدنا على تقوية حضارتنا، ومواجهة خصومنا.

كلمات مفتاحية: علم الكلام .، الاسم.، المفهوم. ثراء.، التجديد.

Abstract:

This research paper aims to reveal the diversity known to the science of speech at the level of its names first, and at the level of its definitions secondly, to show through this: the extent of the richness of this science starting from the authenticity of its source, the diversity of its names, and the extent to which the science of speech is distinguished from philosophy and many other Islamic sciences As well as the flexibility of this science and its ability to develop, which calls for renewal in its subject and methods.

In conclusion, we come to recommend the need to invest the traditional efforts in the science of speech, and what it contained in terms of knowledge and defensive methods, to build new theological sciences that help us to strengthen our civilization and confront our opponents.

Keywords: Essence of kalam ; The name; Concept ; Richness; Renewal.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إن المتتبع لتاريخ الحضارة الإسلامية يلفته ذلك الإقلاع الفكري الذي شهده المجتمع الإسلامي مع نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة، حيث تألق المسلمون في مراتب المعرفة بأعمالهم بين علوم اختص بعضها في التصرفات وبعضها في التصورات، والبعض الأخر في الحادثات والنوازل، فكان من ذلك علوم الفقه والحديث والتفسير والبلاغة وعلم الكلام.

إلا أن براعة المسلمين في علوم الدين من تخصصات، وقراءات، وتفسير، لم يكن القصد منه الإنفراد بالنظر في القرآن الكريم ولانعزال عما كان يجري من أحداث في الواقع الاجتماعي أو واقع الحضارات الأخرى، وإنما يعني التأمل في الخلق ومظاهر الوجود والحياة عموما، ويعني أيضا التوفيق بين متطلبات الوحي ومتطلبات العقل، وكذا الدفاع عن عقيدة الإسلام وحراستها من تشويش أهل البدعة، وهو ما أخذه المتكلمون على عاتقهم وتطلعوا إلى القيام به، بما فرضه عليهم واجب الذب عن الدين ونصرته.

فكان علم الكلام بذلك من أبرز العلوم التي ميزت حضارتهم تأصيلا وإبداعا، نشأ في كنف الإسلام وثقافته، وتعارف المؤرخون على تسميته بعلم الكلام، رغم تعدد أسمائه واختلاف تعريفاته بحسب توجه كل عالم وموقفه الكلامي، وهوا ما استوقفنا ولفت انتباهنا وجعلنا نتساءل: بما نفسر هذا التنوع الاصطلاحي والتعدد الدلالي في علم الكلام؟ ألا يدل ذلك على ثراء محتواه وإمكانية لتجديده؟

من هنا تهدف هذه الدراسة إلى البحث في تراث علم الكلام لمقاربة ماهيته، انطلاقا من استقراء تسمياته المتعددة ومقارنة تعريفاته المختلفة التي عُرف بها عبر تاريخه، وغرضنا في ذلك هـو:

ـ الكشف عن مدى ثراء هذا العلم بداية من غزارة منبعه، وكثرة أسمائه، وتنوع مناهجه وآليات حجاجه.

ـ إبـراز أصالة علم الكلام بتميزه عن الفلسفة، بل والكثير من العلوم الإسلامية التي عرفها المسلمون (كالفقه وعلم الحديث، والتفسير، وغيرها من العلوم الأخرى رغم اقترابه منها وتكامله معها.

ـ الكشف عن مرونة هذا العلم ومدى قدرته على تجديد آلياته وأساليب دفاعه وفق الأحداث المستجدة.

2. **علـم الكلام وتعـدد التسـميـة:**

من الملاحظات التي تستوقف الباحث المتأمل لتاريخ علم الكلام، تعدد أسمائه التي تباينت في اصطلاحها ومعناها بحسب موقف كل متكلم واتجاهه، ومن ذلك أنه سمي: بعلم الكلام وهو أشهر أسمائه التي عرف بها، كما سمي بأسماء أخرى، جمعها لنا الشيخ المولوي محمد بن علي التهانوي في كتابه " كشاف اصطلاحات الفنون" قائلا عنه: أنه سمي علم أصول الدين، وسماه أبو حنيفة < ت 150هـ>: بالفقه الأكبر ، وسمي بعلم النظر والاستدلال، وسمي أيضا بعلم التوحيد والصفات (...) وسمي بعلم الشرائع والأحكام، وبعلم الذات والصفات، وكذلك بعلم العقائد الإسلامية (محمد السيد، محمد صالح، 1987، ص ص 16م17).

إن هذا التنوع في أسماء علم الكلام إن دلّ على شيء إنما يدل على ثراء هذا العلم، ليس على مستوى اسمه فقط، بل وعلى مستوى موضوعاته، ومناهجه، وغاياته ومقاصده، وقد يشير من جهة أخرى إلى غزارة منبعه فهو ينهل موضوعاته ورؤاه ومسلماته ومبادئه من معين لا ينفذ، كما تدل هذه الكثرة في تعدد تسمياته أيضا على تفاعله مع حقول معرفية كثيرة، إسلامية كعلوم القرآن والحديث والتفسير والفقه وأصول اللغة، وعلوم حكيمية من منطق وفلسفة، وهو ما جعله يتأثر بها وينطبع بمصطلحاتها ومناهجها، فجاءت الكثير من أسمائه على أسماء تلك العلوم، مثلما جاء في وصف أبو حنيفة الذي اصطلح عليه بـ: " الفقه الأكبر في مقابل الفقه الأصغر، لأنه يبحث في الأصول الدينية كصفات الله والخلق والبعث وكلها تقابل الفروع التي يبحثها الفقه الأصغر" (بدران فيصل، د.ت، ص53)، وسمي بعلم التوحيد

أو علم التوحيد والصفات كما جاء في كتاب التوحيد في الجامع الصحيح للبخاري < ت256هـ>، وكتاب التوحيد للماتوريدي < ت333 هـ> " (بن لحسن بدران مسعود، 2018، ص194)، لأن أهم مسائله تعلقت بالتوحيد الإلهي وتنزيه الله عن كل ما عداه، وسمي بالسنة كما ورد في سفر السنة لأحمد بن حنبل < ت 241هـ> وكتاب السنة لأبي داود <ت 27هـ>.

من الواضح هنا كيف جاءت هذه التسميات متأثرة بعلوم برع أصحابها في مسائل الشرع أكثر من تأثرهم بالعلوم العقلية، ليتبين لنا أن ما خاض فيه المتكلمون من موضوعات متعددة إنما كان ذلك بفضل توجيه المصادر الإسلامية من قرأن وسنة صحيحة، وهو ما كان سائدا في العهود الأولى لعلم الكلام حتى القرن الخامس هجري، حيث بدأنا نلاحظ تهميش الكلام لعلوم الفقه والأصول في مقابل إعطاء الأولوية للعلوم الحكيمية، بعدما شابته عناصر يونانية ومزج بالفلسفة، هذه بعض الأسماء التي عُرف بها علم الكلام إلا أن التسمية الشائعة التي اشتهر بها هي ـ علم الكلام ـ فلماذا استقر علم الكلام على هذا الاسم؟.

لقد وردت أقوال كثيرة تفسر سبب اشتهار علم الكلام بهذا الاسم، لخصها لنا القاضي عضد الدين الإيجي <ت 1355م> في كتابه "المواقف في علم الكلام" بقوله: "علم الكلام سمي بذلك إما لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيها الشجار، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات مع الخصم، أو لأنه جاء بإزاء المنطق للفلسفة" (محمد السيد، محمد صالح، 1987، ص16)، والمعنى من ذلك أن سبب اشتهار علم الكلام بهذا الاسم لا يخرج عن الأسباب الآتية:

ـ إما لأن كلام الله يمثل أهم مسألة عند المسلمين فارتبطت التسمية بهذا الاسم، فقد ذُكر أن المسلمين اختلفوا حول طبيعة كلام الله: هل هو حادث أم قديم؟ وأثيرت شكوك كثيرة إزاء هذه المشكلة وصلت إلى حد الاقتتال" (بدر عون فيصل، د ـ ت، ص53)، فشكلت بذلك أشهر مباحث هذا العلم، فسمي الكل باسم أشهر أجزاءه.

ـ وإما لأن علم الكلام يورث المشتغل به قدرة على الكلام والحوار والمجادلة، ويكسبه فن البلاغة والحجاج في أمور العقيدة مع الخصوم، من حيث أن المتكلمين وجدوا في الدين ما يساعدهم على فضح غيرهم من المخالفين، بما احتواه من أخبار العقائد الأخرى المخالفة للإسلام، وما شمله من أمثلة وحجج داحضة شكلت قوة لمنطق خطابهم.

ـ أو لأن العادة عند علماء الدين الباحثين في الأصول بالعقل آنذاك جرت على أنهم كانوا يعنون أبحاثهم بـ: الكلام في ... فيقال: الكلام في الصفات والكلام في الذات والكلام في العقل والكلام في القدرة وهكذا، لهذا اعتقد البعض أن تسمية هذا البحث بعلم الكلام قد ترجع لهذا السبب (بدر عون فيصل، د ـ ت، ص54).

ـ وإما أنه أشتهر بالفظ الكلام حتى تبقى نسبته للعلوم الإسلامية قائمة في مقابل نسبة المنطق إلى الفلسفة، وبذلك تقع المخالفة بين الاسمين، خاصة وأن اللذين كانوا يمثلون الأفكار والعقائد الإسلامية أرادوا أن يتميزوا على خصومهم آنذاك، وهم الفلاسفة فاختاروا هذه التسمية ـ علم الكلام ـ والتي تقع في حقيقة أمرها بين الدين والعقل (بدر عون فيصل، د ـ ت، ص54).

وفي كل الأحوال فإن القصد من هذه التسمية واضح وهو المحافظة على خصوصية هذا العلم وأصالته.

1.2 علم الكلام وتعدد المفهوم:

إذا كنا قد لحضنا كيف تميز علم الكلام بتعدد أسمائه وألقابه، فكذلك تميز بتنوع تعريفاته ومفاهيمه، لدرجة اختلاف حقلها الدلالي أحيانا وتقاربها أحيانا أخرى، فثمة أكثر من تعريف لهذا العلم قد ورد على لسان علماء الكلام والفلاسفة والفقهاء ومتخصصين في علوم أخرى، ومن الطبيعي أن تأتي هذه التعريفات متباينة بقدر توجه كل عالم وغلبة تخصصه العلمي، فرأي الفيلسوف فيه مثلا يختلف عن موقف المتكلم، بل وكذلك مفهومه عند المتكلمين الأواخر ليس كمفهومه عند الأوائل منهم، فهو يتشكل بحسب تغير الأحداث

والأحوال التي ألمت بهم، مما يشهد على حركية هذا العلم ومقدرته على التطور من مرحلة إلى مرحلة تاريخية أخرى، وكذا تفاعله في الوقت نفسه مع المستجدات والأحداث التي مرّ بها المسلمون، وهو ما يدعو إلى وصفه بالمرونة والديناميكية إذ أنه على ما يظهر لم يأت منعزلا عما كان يجري من أحداث في الواقع الاجتماعي وواقع الحضارات الأخرى، وهو ما سنلاحظه من خلال استقراءينا لبعض تعريفاته ـ إلا أن المشكلة التي تعترضنا هنا هي: هل نتتبع هذا الاستقراء تتبعا تاريخيا فنقارن بين تعريفات المتكلمين المتقدمين والمتأخرين منهم، محتكمين في ذلك إلى المنهج التاريخي أم أننا نقارن تعريفات بعض التخصصات بتخصصات أخرى، كأن نورد نماذج لبعض المتكلمين ونقابلها بنماذج أخرى لبعض الفلاسفة متبعين في ذلك منهج المقارنة؟، ويظهر أنه من المفيد الاستعانة بالمنهجين معا لتداخلهما في مثل هذه الدراسات.

ـ من التعريفات التي ذكرت في صدارة القرون الأولى لهذا العلم، تعريف الإمام أبو حنيفة الذي قال عنه: أنه الفقه الأكبر، وهو الفقه في الدين، وهو أفضل من الفقه الأصغر لأن الفقه في الدين أصل والفقه في العلم فرع، وفضل الأصل على الفرع معلوم (بن لحسن بدران مسعود، 2018، ص14).

يظهر من هذا التحديد لعلم الكلام في المراحل الأولى من تاريخه أنه ركز على فهم وتحصيل العقائد الدينية أكثر من الدفاع عنها، فلم تكن مهمته دفاعية فقط كما يضن البعض بل توضيحية أولا، ولعل هذا من ذاك، إذ لا يمكن أن يحصل الدفاع عن الدين ما لم يحصل الفهم والتحصيل له، وربما لوجه هذه الغاية جاءت بواكير المباحث الكلامية الأولى توضيحية، تدور حول قضايا الإيمان وأمهات المسائل العقائدية، فمن الضروري أن يملك المتكلم فهما صحيحا شاملا للشريعة ليكون لديه القدرة التامة على إثباتها، والمناظرة في مسائلها، والمناظرة هنا عنصر مهم في هذا العلم لا تكون إلا بزاد التحصيل لمضمون الإيمان، بدليل إعطاء أبو حنيفة أهمية للاعتقاد أولا كمقدمة لا تنفصل عن الاعتقادات بالعمل

ثانيا، ووصفه بالفقه الأكبر يجعله على رأس العلوم الشرعية تستند إليه استناد الفروع على الأصول، ذلك أنه علم يرتبط بالعمل والعمل فرع على النظر والاعتقاد.

يتبين أيضا من هذا الوصف الذي أورده أبو حنيفة لعلم الكلام أن منهج التصنيف الكلامي فيه لم يشمل المسائل العقلية التي هي وسائل لإثبات العقيدة، والتي اشتهرت عند المتأخرين بالمقدمات، إنما اقتصر الوصف على العقائد الدينية اليقينية، وهي أحكام الشريعة التي يجب الإيمان بها شرعا، بخلاف الأحكام الشرعية العملية مثلا وهي ما يأخذ به للعمل بمقتضاه وهو موضوع علم الفقه.

بعد تعريف أبو حنيفة نجد تعريفا أخر لـ : أبي حيان التوحيدي <ت 400هـ> في القرن الرابع هجري في كتابه ثمرات العلوم حيث قال عنه: "وأما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار في أصول الدين، يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتقبيح والإحالة والتصحيح والإيجاب والتجويز والاقتدار والتعديل والتجوير والتوحيد والتكفير، والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق ينفرد العقل به، وبين جليل يفزع إلى كتاب الله تعالى فيه، ثم التفاوت في ذلك بين المتحلين به على مقاديرهم في البحث والتنقير والفكر والتحبير والجدل والمناظرة، والبيان والمناضلة، والظفر بينهم بالحق سجال ولهم عليه مكر ومجال، وبابه مجاور لباب الفقه، والكلام فيهما مشترك وإن كان بينهما انفصال وتباين، فإن الشراكة بينهما واقعة" (بدوي عبد الرحمان،1997،ص13).

والجليل في علم الكلام هو ما اختص بالبحث في الذات الإلهية، وصفات البارئ وأفعاله، وقدرته وعلمه وهي موضوعات من أمهات المسائل الإيمانية، لا يكون النظر العقلي فيها إلا بمقتضى الإسلام طبقا لأصول الشريعة، يأتي دور العقل فيها مستدلا عليها لا منشئ، وغاية الكلام منها تجلية الإيمان بالإيقان، أما دقيق الكلام فهو ما تعلق بموضوعات المادة وصفاتها وتحولاتها، أي موضوعات الطبيعة وما تفرع عنها من جوهر وفروع، قِدمٍ وحدوث، وجوب وإمكان، وحدة وكثرة، وهذا كله في إطار الدلالة على قدرة الله تعالى، ذلك أن الحديث في باب الإلهيات في جليل الكلام يستدعي الحديث عن مباحث أخرى تتصل بأفعال الله، والاستدلال

على الأصول الاعتقادية يستلزم تناول موضوعات الطبيعة، كالجوهر الفرد، والسببية وغيرها.

يبدو أن مقصود هذا العلم عند "التوحيدي" لم يبتعد كثيرا عن مقصود "أبو حنيفة"، فقد حدد موضوع بحثه في أصول الدين وأمهات المسائل العقائدية بمنهج العقل وآلياته، من جدل ومناظرة وبيان ومناضلة، بغرض تحقيق الفهم الإيماني والدفاع عن الشريعة الإسلامية ـ إلا أن أبا حيان التوحيدي في تعريفه هذا، وضع علما الكلام والفقه في مرتبة واحدة، فجعل بابه مجاورا لباب الفقه رغم اعترافه من جهة أخرى بما يوجد بينهما من شراكة في الموضوع والغاية .

هذا وإذا تأملنا القرن الرابع هجري مرة أخرى والذي يعتبره البعض فاصلا مهما في تاريخ علم الكلام، بين القرون التي سبقته والتي " كان يغلب على علم الكلام فيها البحث في فهم الإيمان وإدراك مضمون العقيدة، وتحديد المعاني الغامضة التي وردت في الكتاب والسنة (الله، صفاته، القدر، العدل الإلهي والوعد والوعيد ...الخ" (بدوي عبد الرحمان،1997، ص14)، والقرون التي تلته حيث اتخذ علم الكلام موقفا دفاعيا وغلب عليه النظر الفلسفي، مثلما جاء في تعريف أبي نصر الفارابي <ت 339هـ> الذي قال عنه: "صناعة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة وتزيف كل ما خالفها بالأقاويل، وهذه الصناعة تنقسم جزأين أيضا: جزء في الآراء وجزء في الأفعال، وهي غير الفقه" (الفارابي أبو نصر،1991، ص41).

في هذا المفهوم يتضح لنا كيف أخرج الفارابي علم الكلام من دائرة خصوص المسلمين إلى دائرة العموم، عندما اعتبره صناعة يستطيع من خلالها أي متكلم مسلم أو غير ذلك أن يدافع بها عن ملته ويبطل كل ما خالفها، فيأتي تعريف الفارابي هذا " ليس على قانون الإسلام بل من خلال نظر فلسفي للدين، وهذا التميز بين منطلق النظر الكلامي ومنطلق

النظر الفلسفي سنجده فيما بعد عند المتكلمين، حينما يفرقون بين المنهج الفلسفي والمنهج الكلامي عند تناول قضايا مشتركة" (بن لحسن بدران مسعود، 2018، ص 195).

أما وصف الفارابي لعلم الكلام بالصناعة التي يقتدر بها المتكلم من نصرة ملته وحفظها من الشبهات والبدع، فهو يحدد لنا هنا غاية هذا العلم وهي حفظ العقائد الدينية وأحكامها الثابتة من كل ما يخالفها، ومن ذلك ما واجهه المسلمون في دينهم من تشويش وتشكيك، عاشه الفارابي وشهده فعلا وربما هو الذي دفعه إلى قوله هذا في علم الكلام.

يمكننا القول إذا : أنه لعلم الكلام دوران جوهريان يتمثل أحدهما: في فهم العقائد الدنية واثبات صحتها، ويتركز الثاني: في الدفاع عنها ضد الخصوم والمنكرين لها. وهو ما جعل الغزالي <ت 505هـ> في القرن الخامس هجري، يصف علم الكلام وصفا دفاعيا في كتابه "المنقذ من الضلال" بقوله: "إنما الهدف منه حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة" (الغزالي أبو حامد،1988، ص13)، وإذا كانت غاية علم الكلام هي حفظ عقيدة المسلمين من التزييف، فلا بد أن يكون لهذه الغاية منهج ومعيار تقوم عليهما وتتم بهيما، فأما المنهج الذي ينبغي أن يسلكه المتكلم لتحقيق مقصوده كما يصف الغزالي فهو فن المجادلة والمحاجة بالبرهان، يقول: "ولهذا العلم آلة يعرف بها، طريق المجادلة بل طريق المحاجة بالبرهان الحقيقي" (بن لحسن بدران، 2018، ص195)، وأما معيار هذا العلم ومحكه فهو المنطق، وعندما يجتمع المنهج (الحجاج) والمعيار (المنطق) هنا، يصير الكلام سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا، يتخللها الترتيب والبيان والدليل بما يحقق قيم التوضيح وقيم الإقناع والدفاع عن العقيدة.

وبهذا يمكن القول أنه مع سنوات القرن الخامس هجري خط علم الكلام ملامح اكتماله موضوعا ومنهجا وغاية، وما زال في ذلك يزيد اتساعا وثراء، يُجدد في مسائله وينوع في مناهجه ويوسع من غاياته ومقاصده بل ويمزج آلياته بآليات العلوم الأخرى من منطق وفلسفة وتأويل، فيخرج بذلك عن نطاق العلوم الإسلامية المحلية إلى نطاق العلوم الحكيمية، بعد نقلها إلى البيئة العربية وترجمتها باللسان العربي .

وربما لهذا التحديث في علم الكلام دوافعه، ومنها احتكاك المسلمون بثقافات غيرهم، وحاجتهم لرد على أقوالهم المخالفة لتعاليم دينهم في باب الإلهيات والطبيعيات والإنسانيات ولكن هذه المرة بامتلاك أساليبهم ومناهجهم التي برعوا فيها، حتى أن بعض المتكلمين أنتجوا في ذلك كتبا مستقلة، مثلما ألف الغزالي تهافت الفلاسفة، وخط الشهرستاني مصارعة الفلاسفة، ومازال المتكلمون في مسالك هذا العلم يجتهدون بالتحديث والتوسعة في آلياته وأساليب دفاعه، بما يتفق وخصائص ثقافتهم ويتناسب وحاجات عصرهم وفق الأحداث المستجدة، ويؤكد أصالتهم وإبداعهم من جهة أخرى.

وهذا الاجتهاد فعل محمود وأمر مطلوب يستوجب النصرة والتشجيع والاستثمار والتمكين له، خصوصا بعدما أبان علم الكلام عن مرونته وخصوبة مفاهيمه ومناهجه، وأظهر المتكلمون براعتهم في الحوار والبيان والحجاج، وقدرتهم على الدفاع والاجتهاد، وهو ما يدعو إلى المطالبة بتنمية هذا العلم وتجديده لاسيما بعد ارتفاع موجات العداء والتشكيك والضلال وإلصاق التهم بالإسلام والمسلمين، وهو ما يدعو أيضا إلى التذكير بعدم حصر مقاصد وغايات هذا العلم في الدفاع عن العقيدة فقط، بل وكل العلوم ومظاهر الحضارة.

3. علم الكلام وضرورة التجديد:

مثلما كان هناك ما يبرر تنوع التسمية والدلالة التي تميز بها علم الكلام كما لحظنا، بل وأعطى المشروعية في وضع تسميات جديدة له تحفظ عليه مرونته وديمومته، هناك ما يدعو إلى تطوير علم الكلام وإعادة بعثه من جديد مثلما جاء في دعوة مشروع تجديد علم الكلام، لاسيما في العقد الأخير الذي يطالب فيه بعض المجددين <أمثال المفكران الإيرانيان مصطفى ملكان واحمد قراملكي، ومحمد عمارة، وشبلي النعماني> ببعث كلام جديد ضمن آليات عمل متناغمة مع تطورات المعرفة الإنسانية انطلاقا بإعادة تسميته بعلم الكلام الجديد.

والتجديد في علم الكلام لا يقصد به تجاوز الموروث وتبديل النصوص، ولا يعني الجدل العقيم في مسائل التراث التي تجاوزها الزمن، ذلك أن الكثير من القضايا والأفكار صارت

منتهية بانتهاء أطرها وبنياتها وظروفها التي أسستها وقامت عليها، كما لا يراد منه التهويم بين مختلف التفاعلات الإيديولوجية القائمة على استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، بمنطق التأويل الموجه، الذي يرمي إلى خدمة المصالح الضيقة.

إنما هو تنزيل ما ندرس من العمل بالدين على أحداث العالم الإسلامي ومشاكله الحقيقية الراهنة مما يعيشه واقعيا، تنزيلا يحصل معه العلاج لهذه الأحداث، والنصرة للدين من تشويش البدع بتمييز الطيب من الخبيث، وتخليص العقول مما علق بها من انحرافات وأوهام، مما يعني "تكييف علم الكلام لطور جديد من أطوار التاريخ بحيث يستجيب لمتطلبات الحياة المتغيرة، ويجيب عن الأسئلة الجديدة والإشكالات المعاصرة التي تقتحم عالمنا الإسلامي" (حسن العمري، محمد خيبر،2002، ص243).

ولا يكون ذلك إلا ببناء منظومة كلامية تقوم على الدفاعية البراغماتية، فمثلا يرى المفكر المصري حسن حنفي أنه "إذا كانت الأصول الاعتقادية للأشعرية في الكلام القديم هي ستة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الأخر والقضاء والقدر خيره وشره، فهل نستطيع أن نجعل قواعد ستة للعقيدة أيضا؟، وهي: مقاومة الاستعمار، ومقاومة التخلف، ومقاومة الصهيونية ومقاومة التجزئة، والتشرذم، ومقاومة الفقر" (حنفي حسن،1988، ص70/69)، من خلال التحديث في الأطروحات والرؤى والمناهج، في إطار الهدي القرآني القائم على مرتكزات العقل التحليلي النقدي بآلياته التفسيرية، التأويلية والاستقصائية.

ومن الضرورات التجديدية في علم الكلام ترجمة المفاهيم بطرق حديثة تخرجها من صورتها القديمة وهياكلها المتوارثة التي تتعلق بالجانب اللغوي والحس الشكلي للمفردات، فمثلا إذا كان المتكلم بحاجة إلى تفسير القرآن الكريم فليس عليه الاعتماد على طريقة التفسير الترتيبي، بل يمكنه انتهاج طريقة التفسير الموضوعي حيث يبدأ المفسر عمله من واقع الحياة وموضوعاتها والعمل في المقابل على توليد أسئلة عن واقعنا لا تحويلها إلى مجرد زخارف نزين بها خطاباتنا التحليلية والإدراكية.

كما ينبغي تنويع الأساليب المنهجية بما يتماشى والكم الهائل من الطرائق البحثية المعاصرة، كأن يتم الاستعانة بالتحليل المفهومي والسمينوطيقا، ومعطيات الاستقراء التجريبي، والأدلة التاريخية والهرمينوطيقا، بدل التراوح بين المنهجين العقلي والنقلي، ذلك أن الواقع التاريخي لعلم الكلام يؤكد قدرته التفاعلية مع العلوم الأخرى، فبعد نجاح تجربته الأولى مع حقول معرفية إسلامية من قرأن وحديث وفقه، مارس تجربته الثانية مع الفلسفة، وهو ما نعكس عليه إيجابا وزاد من مساحته، دون أن يؤدي ذلك إلى إفراغه من محتواه وطابعه الخاص (ماعدا بعض التأثرات الجانبية على بعض المتكلمين).

هذا ما ينبغي أن ينتبه إليه المجددون اليوم ويحتكمون إليه توصيفا، إذ يتوجب العمل على مواصلة الخط البيني، التفاعلي بين علم الكلام ومختلف العلوم المعاصرة، حتى يصير علم الكلام منفتحا على جميع العلوم يتشابك معها ويطور من خلالها آلياته التفسيرية، التحليلية، وأدواته الدفاعية، وهو ما يمكِّنه من تأسيس ابستملوجيا مفتوحة ومُؤطرة.

مفتوحة بتواصلها مع مختلف الدراسات الفقهية والكلامية، الإنسانية والاجتماعية، والعلوم والفنون والآداب المعاصرة، تواصلا يتحقق معه الثراء المعرفي، اللغوي والمنهجي، ذلك أن فهم الواقع الإنساني بأحداثه المتنوعة وعناصره المتعددة، يتطلب علما نماذجه شاملة ومرنة، حتى لا نقع في الطروحات التبسيطية والمنظورات الاختزالية الضيقة، وفوق ذلك نتفادى التعميم وتكرار الديباجات الكلاسيكية.

ومُؤطرة بارتكازها على الدين والمنظومة التراثية الإسلامية بكل قيمها ومنجزاتها الأخلاقية والحضارية، ومقولة الدين هنا ضرورية تمثل الأرضية الصلبة التي يتأسس عليها علم الكلام، فهو الوحي المحيط بكل شيء علما، تتضمن آياته حقائق عالية ومسائل دقيقة يستمد منها المتكلم بحسب كفاءاته التفسيرية وقدراته اللغوية النحوية، وطاقاته العقلية، ورؤاه الإدراكية التي تزيد وتتسع بدرجة انفتاحه على العلوم والمناهج والثقافات المعاصرة.

فبدل التراكم المعرفي ومواجهة الواقع بقانون عام واحد، من المهم تبني منهج)، توليدي اجتهادي، لا يقوم على التلقي الموضوعي للمعلومات، بل يعمل على تمَيزِيها بإعادة قراءتها ومعرفة الدوافع الكامنة خلفها، والوقوف عند تفاصيلها التاريخية والاجتماعية والإيديولوجية، وهو ما يجعل عملية التجديد عملية اجتهادية مستمرة، فالقدرة على الإبداع ينبغي أن تظل قائمة داخل مناهجنا وأطرنا المعرفية بوصفها مشروعا فكريا جدليا لا يكتفي بتراكمية المعرفة أو جمودها، بل يدعو إلى الانفتاح على جملة التجارب والمعارف البشرية المختلفة، في إطار رؤية تركيبية ديناميكية متواصلة في حدود القيم الدينية الأصيلة، والاعتبارات الأخلاقية والإنسانية المشتركة.

لكن قبل ذلك كله ينبغي "تشكيل مؤسسات بحثية ولجان لتصحيح التراث الكلامي وإخراجه من المكتبات القديمة وعالم المخطوطات، وتأسيس بنوك معلوماتية كلامية تسهل على الباحث المادة الكلامية وتحول علم الكلام إلى عالم الإنترنت والمؤتمرات الدورية، بالإضافة إلى الاهتمام بالأحداث الكلامية المتخصصة وإعمال معاجم وموسوعات ومصطلحات مفهرسة، وكذا مراكز الترجمة التي تنقل الفكر الأخر، كما تعرف الأخر بالفكر الكلامي الإسلامي" (حيدر حب الله، الموقع: **http://hobbollah.com/articles/**)، وترد عليه بمنطقه ولسانه.

فلا يصلح الحال إلا كما صلح به أوله، إذ كما اجتهد المتكلمون القدماء في فهم الشريعة ودونوا تصوراتهم في أصول الدين، حتى صاروا فيها بالمناظرة والبيان بارعون، فكذلك على المجددين اليوم الاجتهاد لتدوين تصوراتهم في التوحيد والمعتقدات بما يستوعب قضايا العصر ومستجدا ته، وكما احتاج علم الكلام في بداية سنوات التنشئة الأولى إلى متخصصين ومترجمين ومجتهدين لتأسيسه والدفاع به عن الملة، نحتاج اليوم إلى ذلك أو أكثر، لنقوي "آليات تثبيت مفاهيمنا الاعتقادية من خلال توظيف مختلف أنواع الإثباتات المنطقية قياسا واستقراء على المستوى العقلي والنصي" (حيدر حب الله، الموقع: **http://hobbollah.com/articles/**)، ونحي سبل الدفاع عن ديننا برفع الشبهات المتنامية،

ودفع موجات التشكيك المتزايدة في زمن التظليل العقائدي والتصعيد الإرهابي والهيمنة الثقافية.

4. الخاتمة:

ختاما يمكن القول: أن التنوع الذي عرفه علم الكلام سواء على مستوى أسمائه أو على مستوى تعريفاته لا يمكن اعتباره ترف فكري جاء عرضا بغير هدف أو غاية، بل له أسبابه التي فرضته ومنها:

ـ تعبيره عن ظروف عصره وتماشيه وأحوال المسلمين، إذ كان لِـزما عليه في بداية نشأته البحث في فهم الإيمان وإدراك مضمون العقيدة وتحديد المعاني الغامضة التي وردت فيها، فجاء مقتربا اسما ومعنى بهذا المطلب، في حين نلاحظ أنه اتخذ موقفا دفاعيا في السنوات التي تلت القرن الرابع هجري .

ـ كذلك وظيفته التي تعهد بها وهي الدفاع عن العقيدة، حتمت عليه الاهتمام بأهم مسألة فيها وهي كلام الله، اهتماما يحصل بالإدراك والفهم والتفسير والاعتبار، فانعكس ذلك عليه ثراءً بثراءِ المنبع الذي نهل منه ليس في المسمى فقط بل وفي المعنى، والمنهج والموضوع، والأصل، ما جعله إسلاميا صرفا ويتضح ذلك في مظاهر شتى، إما في ارتباط موضوعه بالدين الإسلامي، وإما في توجيه بحثه في قضايا الإيمان ومضمون العقيدة، وإما في تحديده المعاني الغامضة التي وردت في الكتاب والسنة، حتى كاد مفهومه ومعناه لا ينفصلان عن علوم الشريعة، التي صارت إليه تنتهي وفيه تثبت موضوعاتها ومنه تستمد أصولها، وفوق ذلك دفاعها وحصانتها.

ـ كما يمكن القول أن هذا التعدد في اصطلاحات علم الكلام ومفاهيمه، إنما يعبر عن مدى مرونة هذا العلم ودرجة تفاعله مع حقول معرفية كثيرة، إسلامية كعلوم القرآن والحديث والفقه، وعلوم حكيمية من منطق وفلسفة، ما جعله يتأثر بأسمائها ومصطلحاتها، فانطبعت الكثير من أسمائه بأسماء تلك العلوم، ومرونته هذه حفظت عليه ديناميكيته وقابليته للتجديد، الأمر الذي تجسد فعلا في دعوات التجديد الكلامي المعاصرة.

. فكرة التجديد في علم الكلام اليوم يمكن اعتبارها دعوة إلى استثمار الجهود التراثية الكلامية، وما حوته من ذخائر معرفية ومنهجية وأساليب دفاعية، وثروة لغوية اصطلاحية لبناء منظومة كلامية جديدة، تقوم على توهجات العقل التحليلي النقدي، وإرشادات الدين وتفاعل المناهج والعلوم، لدراسة المشاكل الراهنة للأمة العربية الإسلامية وتحقيق مقصدية الفهم الديني والدفاع عن تعاليمه قبالة المعارضين، بالصور المناسبة المتمكنة من استيعاب المستجدات وتجاوز المذهبية والمصالح الضيقة.

5. قائمة المراجع:

. 1. محمد السيد، محمد صالح، 1987، أصالة علم الكلام، القاهرة، دار و النشر، ص 17/16. الثقافة .

2 . بدر عون، فيصل، علم الكلام ومدارسه، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ص 53.

3 . بن لحسن، بدران مسعود، 2018، ماهية علم الكلام، دراسة وصفية تاريخية، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد ، ص 194.

4 . محمد السيد، محمد صالح، 1987، أصالة علم الكلام، مرجع سابق. ص16.

5 . بدر عون، فيصل، علم الكلام ومدارسه، مرجع سابق، 53.

6 . المرجع نفسه، ص 54.

7 . المرجع نفسه، ص 54.

8 . بن لحسن، بدران مسعود، ماهية علم الكلام، مرجع سابق، ص 159.

9 . بدوي، عبد الرحمان، 1997، مذاهب الإسلاميين، بيروت، لبنان، دار العلم للملاين، (د، ط). ص13.

10 . المرجع نفسه، ص 14.

11 . الفارابي، أبو نصر، 1991، إحصاء علوم الدين، بيروت، المركز القومي للإنماء، 41.

12 . بن لحسن، بدران مسعود، ماهية علم الكلام، مرجع سابق، ص 195.

13. الغزالي، أبو حامد،1988، المنقذ من الضلال، مصر، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص13.

14. بن لحسن، بدران مسعود، ماهية علم الكلام، مرجع سابق، ص 195.

15. حسن العمري، محمد خير، 2002، علم الكلام بين الأصالة والتجديد،الأردن، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد 3/أ، ص 243.

16. حنفي، حسن،1988، من العقيدة إلى الثورة (المقدمات النظرية)، بيروت، لبنان،دار الطباعة للنشر، الطبعة الأولى، ص ص 70/69.

17. حيدر، حب الله، 2019، التجديد في علم الكلام الإسلامي، http://hobbollah.com/articles/2019/05/.

18. المرجع نفسه.